«معركة عين جالوت»
سنة ٦٥٨ هـ

تعـرض العالم الإسـلامي في النصف الأول من القرن السـابع الهجري لهجمـة وثنية شرسة، قام بها المغول الـوثنيون بتحريض من النصارى الصليبيين. وكانت حالة العـالم الإسلامي في ذلك العصر سيئة جدًّا، فعلى الـرغم من وجود الخلافة العباسيـة في بغداد إلا أنها كانت جسـدًا بلا روح، فلا سلطة لها ولا هيبـة، وقد تفكك العالم الإسلامـي إلى دويلات وإمارات لا يربطها رابط، فـالكل مشغول بتثبيت حكمه أو إمارته، كما أن المجتمع الإسلامي قد أصابه الفساد وتفشت فيه الأمـراض الخلقية، وبَعُـد النـاس عن تعاليـم الإسلام، وخبت روح الجهـاد في النفوس، فكـان ذلك كله عاملاً مسـاعدًا سهَّل على المغول مهمة اجتيـاح بلاد المسلمين.

انطلق المغـول من الصين شرقًـا، متجهين نحـو الممالك الإسـلاميـة غـربًـا واصطدموا بالدولة الخوارزمية، فأسقطـوها، ثم أخذت المدن الإسلامية تتهاوى في أيـديهم الـواحـدة تلـو الأخـرى، فسقطت أتـرار، وبخـارى، وسمـرقنـد، وجرجانية، ووصلوا إلى العراق، واحتلوا مـدنه وقراه، ثم هجموا على بغداد مركز الخلافـة ومقر الخليفـة وحاصروهـا أيـاما قليلـة، فسلمت لهم بلا عنـاء، وأسر الخليفـة العبـاسي وقتل، كما قتل من المسلمين أعـداد كبيرة جدًّا قـدرهـا بعض المؤخرين بثمانمائة ألف إنسان.

وكانـت المرحلة الثـانية هي بـلاد الشام، فسار إليهـا المغول، واحتلـوا حلب وحماة وسلمت لهم دمشق بلا قتال وأصبح الدور على مصر والحجاز.

كان المماليك المسلمون يحكمون مصر، وهم طائفة ممن جلب إلى بلاد الإسلام وبيعوا فيها فاعتنقوا الإسلام وكثر عددهم حتى أصبح الأمر في أيديهم، كانوا لا يعرفـون لهم أصلاً ولا موطنًـا إلا الإسلام، وبـلاد الإسلام، فأخلصوا في خـدمة

هذا الدين وتحملوا واجب الدفاع عنه فترة طويلة من الزمن.

تسلّم السلطان المظفر قُطُز الحكم حينما وصل المغول إلى الشام وكان في وضع لا يحسد عليه، فكان أول شيء يصل إليه تهديد من طاغية المغول هولاكو يطالب بالتسليم والاستسلام، لئلا يلقى المصير نفسه الذي لقيه الحكام المسلمون السابقون. إلا أن قطز كان لديه من العزة الإسلامية ما منعه من ذلك، واستشار قومه ماذا يفعل؟ أيرد ردا جميلاً ويرسل الهدايا ويهادن ويلاطفُ، أم يقف موقفًا حاسمًا ويستعد للمنازلة والصراع؟

كان رأي أغلب الأمراء يميل للمهادنة، إلا أن قطز توكل على الله سبحانه ووقف موقفًا حاسمًا فإما حياة بعزة، ونصر للإسلام، وإما شهادة يفوز بها فيعذر، وأصدر أمره بقتل رسل المغول والاستعداد للقتال، وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة.

وسرت في المسلمين روح العزة واشتاقت النفوس للجهاد، كيف يتجرأ قطز على قتال المغول؟

لقد ترسخ في أذهان المسلمين أنهم لا يهزمون فكسرت هذه القاعدة واهتزت تلك الصورة، ونادى منادي الجهاد أن حي على الجنة، حي على الشهادة حي على الفلاح، وبدأت تجتمع الجموع، ولكن لا يزال من الأمراء والمماليك من يرى أن الجهاد وقتال المغول محسوم النتيجة ومصيره للهزيمة فآثر الاستسلام، ولكن إيمان قطز وحماسه وحبه للجهاد دفعه إلى أن يقف خطيبًا ليقول: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت مال المسلمين وأنتم للجهاد كارهون فإني سائر، ومن أراد فليتبعني ومن أراد فليتخلف وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين». نعم إن المجال مجال الجهاد، فلا سلطان ولا أمر ولا نهي، لكن العقيدة والإيمان هما المحركان والمؤثران وكان لهذه الكلمات فعل السحر في نفوس المماليك فتدافعوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد، وأراد قطز أن يهاجم المغول وألا ينتظر حتى يهاجموه فخرج من مصر بجيشه وسار إلى سهل قرب عين جالوت في

شرق فلسطين وكان الظاهر بيبرس قد سار في المقدمة، فالتقى بمقدمة جيش المغول فهزمهم شرّ هزيمة، فكان ذلك بشرى للنصر العظيم، وعسكر المسلمون إزاء جيش المغول، وفي الساعة المحددة التحم الجيشان جيش قوي منتصر ومندفع وجيش ينتمي لأمة منهزمة مكلومة، ولكن عزة الإسلام وأثر العقيدة قد تحركت في النفوس فتغلبت على عوامل الضعف، وطبق المسلمون خطة حربية محكمة، استعملوا فيها الخدعة وأوقعوا بالمغول، وأبلى المماليك بلاءً حسنا، وكان قطز يحمسهم ويصيح وا إسلاماه وا إسلاماه ويسجد لله ويعفر وجهه في التراب، ويدعوه ويقول يا الله انصر عبدك قطز، واستجاب الله لهذا الدعاء، وأنزل نصره على المسلمين، وهزم المغول لأول مرة أمام المسلمين، ووقعوا بين قتيل وأسير، وأسر قائدهم ثم قتل، وكان ذلك في شهر رمضان من عام ٦٥٨هـ لقد تمخضت هذه المعركة عن نتائج حاسمة على الأمة الإسلامية، بل على العالم أجمع فلقد طُهرت أكثر بلاد المسلمين من المغول، وأصبح المسلمون في موقع المنتصر المؤثر فبدأ دخول المغول في الإسلام، وأوقفت هذه المعركة المد الغربي الذي كان يستهدف بقية بلاد المسلمين ومن ثم العالم أجمع.

وهكذا سجل هذا القائد المسلم (المظفر قطز) نصرًا للأمة الإسلامية وانتشلها من الضعف والانهيار إلى القوة والنصر وكان ما يزال شابا يافعا؛ ليضرب بذلك مثلاً لشباب المسلمين ولأمة الإسلام أن النصردائماً معهم إن هم وفوا بشروطه وأهمها الالتفاف حول عقيدة الإسلام.

المصادر:

١ ـ الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ٣ ص ٢٨٨، وما بعدها تحقيق محمد زغلول.
دول الإسلام جـ٢ ص ١٦٣ تحقيق: محمد فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة.

٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٠.

٣ ـ المقريزي: السلوك جـ١ ق٢ ص ٤٢٧.

٤ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة جـ٧ ص ٧٨ ومابعدها طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب.

فتح أنطاكية
سنة ٦٦٦ هـ

وهذه معركـة من معارك المسلمين ضد الصليبيين أما الزمـان فهو رمضان من سنة ست وستين وستمائة ، وأمـا المكان فهو الشـام وبالتحديـد مدينة أنطـاكية ، وأما القائد فهـو السلطان المسلم والقائد المظفر قاهر المغـول والصليبيين الظاهرُ بيبرس رحمه الله .

تـولى هذا القـائد المسلم الحكم في دولة المماليك بُعَيْـد معركـة عين جالـوت ، وأبدى من الأعمال والإصلاحـات ما جعل المؤرخين يعدونه بحق مـؤسس الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز .

والواقع أن الظـاهر بيبرس قاد أمة الإسلام وحقـق الله النصر لها على يديه على عـدوين قـويين تحالفـا من أجل القضـاء على هذه الأمـة ودينهـا ، وهما المغـول الوثنيـون في الشرق ، والصليبيون النصارى في الغـرب . فالمغول في الشرق أقـاموا لهم دولة في فارس والعراق ، وأصبحـوا يتحينون الفرص للثأر من المسلمين الذين سحقوهم في معركة عين جالوت ، كما تحدثنا عن ذلك ، فيما مضى .

أما النصارى فعلى الرغم من الهزائم التي أنـزلها بهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله فلا زالت الإمـدادات تصلهم تباعًا من الدول الأوروبيـة فتتقوى بها إماراتهم الثلاث في قلب العالم الإسلامي .

وهكـذا وجد سلطـان المسلمين آنذاك أنـه محصـور بين هاتين القـوتين ، ومع ذلك لم يضعف ولم يستسلم ، ولكنه عزم على الجهاد ، هيأ دولته وشعبه لهذا الأمر العظيم ، واتخذ الأسبـاب المعينـة على هـزيمة الأعـداء ، ووضع لنفســه منهجـا وأسلوبًا عسكريًّا فريـدًا ، قوامه الصرامة في التعامل مع الأعداء ، ووضع الخطط الحربية المناسبة ، والسرية التامة في كل تحركـاته ووجهاته حتى مع جنده وقادته ، وحقق بتوفيق الله انتصارات حاسمة على المغول وعلى الصليبيين ، فتهاوت أمامه

المدن والقلاع وطهَّرها من رجس الصليبيين، وفي رمضان سنة ست وستين وستمائة كان الموعد مع أنطاكية.

وأنطاكية عاصمة الإمارة الصليبية التي تحمل اسمها، وهي واحدة من ثلاث إمارات صليبية ظلَّت باقية في العالم الإسلامي إلى ذلك الوقت، حيث أزالها المماليك بعد ذلك.

سار السلطان بيبرس بجيشه نحو أنطاكية مارًّا بمدن الشام، حيث أمرَ بإبطال الخمور والمنكرات، وأمر ببناء مسجد في حمص، وهكذا كان معظم قادة المسلمين يقدمون الأعمال الصالحة قبل جهادهم، ويطهرون بلادهم من المعاصي والمنكرات لعلمهم أن ذلك هو الطريق إلى النصر المظفر بإذن الله.

وما خُذِلَ المسلمون وما هُزموا إلا بما قدمته أيديهم، ولذا كانت وصية خلفاء رسول الله ﷺ لقادتهم هي اجتناب المعاصي والبعد عن الآثام لأنها سبب الهزائم.

وصلت الجيوش الإسلامية إلى أنطاكية، وأحاطت بها من كل جانب، وكان ذلك في يوم جمعة من أيام رمضان المبارك، فكان ذلك شرف زماني عظيم تُرَجَّى فيه إجابة الدعوات، وأرسل المسلمون للنصارى يطلبون منهم الاستسلام حفظًا لأرواحهم، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وفي يوم السبت زحفت العساكر الإسلامية وأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها، وقاتل أهلها قتالاً شديدًا فتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل، ونزلوا المدينة فهرب أهلها إلى القلعة، وتسلم المسلمون المدينة، فقتلوا من قاتلهم، وأسروا الباقي، وكان في هذه المدينة مائة ألف من الصليبيين من المحاربين.

وأما القلعة فقد اجتمع فيها ثمانية آلاف من المقاتلة الأشداء، غير أنَّ المسلمين ضيَّقوا عليهم فطلبوا التسليم في يوم الأحد، على أن لا يقتلوا فاستجاب لهم المسلمون وصعد السلطان الظاهر بيبرس ـ رحمه الله تعالى ـ وتسلَّم القلعة وعفا عن كل من فيها.

وكُتِبَت كتب البشائر لأنحاء العالم الإسلامي بهذا النصر العظيم، والفتح الكبير وسقطت بذلك إمارة أنطاكية الصليبية، فكان ذلك إيذانًا بزوال الإمارات الصليبية كلِّها.

وكان ملك أنطاكية خارجها فسلم لأجل ذلك، وأرسل لـه السلطان بيبرس كتابًا يخبره بهذا الفتح ويصف لـه الوقعة ويدعوه إلى الاستسلام وهذه مقتطفات منه:

«وفتحناها بالسيف من يوم السبت من رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها، والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالتك وهم صراعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنهابة فيها تصول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وإماءك فكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق لكنت تقول: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ واستنزلنا أصحابك من الصياصي، وأخذناهم بالنَّواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان، إلا النهر فلو استطاع لما تسمى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندمًا».

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين، واستعادوا منهم منطقة من مناطق العالم الإسلامي التي احتلوها قبل عشرات السنين، ومع ذلك لم ييأس المسلمون ولم يقنطوا وعملوا أسباب النصر فوهب الله لهم ذلك.

المصادر:

١ ـ محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٠٧ وما بعدها، تحقيق عبد العزيز الخويطر.

٢ ـ المقريزي: السلوك جـ١ ق ٢ ص ٥٦٧ وما بعدها.

فتح أرمينيا الصغرى
سنة ٦٧٣ هـ

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون على النصارى الأرمن في شهر رمضان من سنة ثلاث وسبعين وستمائة هجرية .

وأما مكان هذا النصر فهو الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط .

والحقيقة أن هذه المنطقة التي أطلق عليها المسلمون اسم الدرب تمثل الحدود المتاخمة لبلاد الروم ، ولذا اهتم بها المسلمون منذ وقت مبكر نظرًا لموقعها الاستراتيجي على أبواب دولة الروم ، وأصبحت مدنُها ومراكزُها ثغورًا من أهم الثغور الإسلامية وأكثرها خطرًا ، فشحنها الخلفاء المسلمون بالرجال والسلاح ، وجعلوا منها مراكز حصينة للدفاع عن أراضي المسلمين ، وأصبحت تعرف بثغور الشام . واشتهر من هذه الثغور مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، والخلفاء مهتمون بأمرها ولا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد .

وبعد قرون من القوة والمنعة ، أصاب هذه الثغور الضعف نتيجة عدم الاهتمام بها ، واستغل الروم ذلك فهاجموها واستولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت خرجت تلك الثغور من يد المسلمين وعادت للروم ، ثم بدأت أعداد من النصارى الأرمن يستقرون فيها واستطاعوا تشكيل كيان ثابت لهم في تلك البقاع سرعان ما تحول إلى دويلة صليبية في شمال العالم الإسلامي .

وحينما جاءت الحملات الصليبية إلى العالم الإسلامي فرح بها هؤلاء الأرمن وقدَّموا لرجالها كلَّ المساعدة ، وأعانوهم على المسلمين ، ودلّوهم على عوراتهم ، بل إن الأرمن اشتركوا بصورة مباشرة في الحرب ضدَّ المسلمين ، وكانوا عليهم أشدَّ من نصارى أوروبا وأعنف ، ولا عجب فملة الكفر واحدة .

ولم يكتف الأرمن بذلك بل كان لهم أثر كبير في تشجيع المغول الوثنيين

ودعوتهم لمهاجمة المسلمين، وعقد ملوك أرمينيا الصغرى تحالفًا معهم ضد المسلمين. ولما جاءت الجيوش المغولية، واكتسحت العالم الإسلامي انضمت جموع النصارى من الأرمن وغيرهم معهم، وكانوا لا يقلون عنفًا وقسوة في تعاملهم مع المسلمين. وهذا هو الذي جعل المسلمين يعدّون الأرمن «أخبث عدو للمسلمين» كما يقول أحد المؤرخين.

ولكن وكما أشرنا إليه في الصفحات السابقة فإن الأمة الإسلامية كانت لا تستكين للهزيمة، ولا تستسلم للذُلِّ، وهذا هو ما يريده الله سبحانه وتعالى لها، أمة مستعلية بدينها منتصرة بعقيدتها، مستمدة أسباب ذلك منه عز وجل.

وبعد أن أفاقت الأمة الإسلامية من هول الاكتساح المغولي بدأ حكامها في العمل على تقويتها، وأدركوا مدى الخطر العظيم الذي يمثله نصارى الأرمن على حدود الدولة الشمالية، فخططوا لإخضاعهم وكسر شوكتهم، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس».

وهذا الحاكم المسلم واحد من أعظم قادة الأمة الإسلامية في التاريخ، حقق الله على يديه لأمة الإسلام انتصارات عظيمة على المغول والصليبيين. ووضع ـ رحمه الله ـ مملكة أرمينيا الصغرى نصب عينيه، وانتهز فرصة هدوء الأوضاع على جبهات القتال مع المغول والصليبيين، فكون جيشا عظيما هدفُه استعادة أملاك المسلمين التي استولى عليها نصارى الأرمن، ولكنه أسرَّ ذلك ولم يطلع عليه أحدًا من قادته، وسار الجيش الإسلاميُّ من مصر قاصدًا الشام ثم اتجه شمالاً إلى بلاد الثغور وكان بيبرس على رأس الجيش ووصلوا إلى تلك المناطق ولنترك وصف مسير هذا الجيش لمؤرخ معاصر لهذه الحملة هو ابن عبد الظاهر حيث يقول: «ووصل الجيش النهرَ الأسودَ، وقطعته العساكر بمشقة، ووقف السلطان حتى عدَّى بأكثر الناس، وفرق الأمراء بجيوشهم كلُّ واحد منهم إلى جهة، فطلعوا الجبال وما سأل أحد عن طريق، ولا بالى بمضيق، ومروا وعليهم جبال من الحديد لامعة، وسنابك الخيل تتلوى على الجبال، والأرض ترج رجًا

والجبال تبسُّ بسا وتغدو هباء منبثا» .

وتساقطت مدن الثغـور الواحدة تلو الأخـرى في يد المسلمين ، وكان ذلك في شهر رمضان . وعيد السلطان بيبرس ـ رحمـه الله ـ في مدينة «سيس» وهي كرسيُّ المملكة الأرمينيـة ، واستولى على قصر الملك ، واتجهت فرقـة من الجيش المملوكي إلى مدينة «إياس» وهي ميناء أرمينية على البحـر الأبيض فاستولت عليها ، وفرت مجموعـة من الأرمن والفرنج عبر البحر فغـرقوا فيه وهكذا لم يكمُل شهـر رمضان إلا والجيوش الإسلاميـة قد أتمت استعادة بلاد الثغـر، واستحق السلطان بيبرس أن يوصف بقاهر الصليبيين والمغول . ولا غرو في ذلك فهو تلميذ صلاح الدين ـ رحمه الله ـ سار على منهجه ، واتبع خطـاه في الجهاد ، فحقق الله على يديه النصر العظيم ، وكان ذلك بعـد عملٍ دءوب وكفاح مستمـر وتحقيق لعوامل النصر كما أوضحهـا القرآن الكـريم ، فالنصر دائماً مع المسلمين إن هم صـدقوا الله وطبقـوا شرعه وعملوا بمقتضاه .

وتغنى الشعراء بهذا النصر العظيم وخلدوه في شعرهم ، يقول أحدهم :

أي يـــوم بنصره قـــد حُبينـــا ... وبـــه اللهُ قـــد أقـرَّ العيـــونـــا

يــومَ جــزنـــا بـــلاد سيسٍ وقلنـــا ... أيَّ نصرٍ من ربِّنـــا قـــد جُـــزينـــا

إذ تبــدَّى السلطـــان بين نجـــوم ... من بني الترك يعشقـــون المنُـــونـــا

إلى أن يقول :

وتــرامــت كل البـــلاد وقـــالت : ... ليتنـــا مثـل سيس قـــد غُـــزينـــا

ليت جيش السلطـــان وافى إلينـــا ... ليت أنـــا بخيلـــه قـــد وُطينـــا

وصدق هذا الشاعـر فكم من البلاد تتمنى حكم المسلمين ، وتحنّ إلى عدلهم ورحمتهم .

المصادر:

١ ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٣٢ وما بعدها .

٢ ـ عز الدين محمد بن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ١٠٦ تحقيق أحمد حطيط ١٤٠٣ هـ

٣ ـ شمـس الـدين محمـد بن أحمد الـذهبي : المختـار من تـاريخ ابن الجـزري ص ٢٧٦ ، تحقيق خضر المنشداوي .